تجربة التأليف المدرسي في اختصاص اللغة العربية وآدابها

د. محمد توفيق أبو علي

اللغة عندنا ليست صَرْفًا ولا نَحْوًا ولا نصوصًا أدبيّة أو حضاريّة فحسب؛ بل هي انتماء، وهي مرآة للفكر والوجدان.

من هذا المنطلَق، فإنّ عنايتنا بالتأليف في مضامير اللغة العربيّة وآدابها، تفرض في تضاعيفها بُعْدًا يكاد يكون تعبّديًّا، فهذه اللغة التي نُعاين إبداعها هي اللسان العربيّ المُبين الذي مثّل مظهرًا من مَظاهر الإعجاز الإلهيّ.

والصِّلة السويّة بهذه اللغة الشريفة لا تَكفِيها العاطفة، مهما استعرت نارها، ولا تقوم بأوَدِها الخِطابات الرنّانة، بل إنّ ما يجعلها تنبض بالحياة منهجٌ علميٌّ واضح السِّمات.

هذه هي الخلفيّة التي سوَّغَتْ لنا مُقاربَتنا التربويّة في تحليل النصوص. ولعلّ التطوّر البارز في تكنولوجيا التربية كان باعثًا أساسيًّا لنا على السعي الدؤوب لمجاراة العصر ومحاولة إرساء منهج استشراقي يجمع إلى الأصالة الحداثة. فالنصّ عندنا بُنيان يتوزّع في بِنًى (جمع بِنية) تتفاعل عناصرها لتؤدّي الوظيفة التي أُنشِئ النصّ من أجْلِها.

ولعلّ مثَلَ النصّ كمثَلِ بِناء يتوزّع في طبقات متعدّدة، كلُّ طبقة على حده تشكّل بِنية مُتكامِلة العناصر، لكنّها لا تنقطع أواصرها عن سائر الطبقات. وفي هذا السياق لا مندوحة لنا عن الإشارة إلى الواقع الذي كان مهيمنًا ولا يزال في كثير من الأصقاع على الرؤية التأليفية في مضامير اللغة العربية وآدابها؛ ولا نبالغ البتّة إذا قلنا إنّ التقليد يكاد يكون سنّة متّبعة تقتفى آثارها من جيل إلى جيل، وما نعنيه بهذا التقليد تلك الرؤية العمياء لنصّ أصمّ أبكم جعلناه حقل استثمار ناطق مبصر لآفاق لا تحد.

ونحن مع إقرارنا بأهمية الذاكرة، بيد أن الذاكرة الجامدة لا تصنع معرفة حية؛ بل إن ما يصنع تلك المعرفة هو ذلك التفاعل التشاركي بين ثالوث هو المتعلم أولاً والنصّ ثانيًا والمعلّم ثالثًا؛ ناهيك من أن تلك الذاكرة الجامدة عرضة للزوال والنسيان؛ فيصبح النصّ إذ ذاك مناسبة لاستثمار كفايات المتعلّم في مجال التفكيك وإعادة البناء؛ فالتفكيك يبيح له_ فضلاً عن ملاحظة البنية الخارجيّة_ معرفة البنية الداخلية للنصّ؛ وإعادة البناء تمكّنه من إثبات كفايات الإنتاج الإبداعيّة، أملاً بالوصول إلى ما نسمّيه المحاكاة الإبداعيّة التي تنطلق من محاكاة نموذج ما،

بغية الوصول إلى إنتاج نموذج إبداعي شخصي؛ وهذه المقاربة تتيح للمتعلّم الانتقال ممّا يسمى بفهم النصّ إلى فهم النصّ وتحليله؛ مما يقوده إلى تملّك كفايات تربوية شتّى، في صدارتها كفاية إنتاج نص جديد؛ الأمر الذي يعني تعزيز كفاية إنتاج المعرفة. ولتأكيد هذا المنهج انتظمت النصوص في وحدات، اشتملت كل وحدة على نصّ محلّل تحليلاً كاملاً يردفه غالبًا نصّ أو نصّان، جرت معالجتهما وفق أنشطة بنائية، توافق موضوع الوحدة وتوجيهاتها؛ أي وفق أسئلة تكوّن أجوبتها تحليلاً كاملاً للنصّ، يسعى المتعلّم – من خلاله_ إلى توظيف كفاياته المعرفية التي أفادها من النصّ المحلّل في سياق النصّ الذي يقوم بتحليله، انطلاقًا من الأسئلة التوجيهية المشار إليها.

من أجْلِ ذلك كلِّه، جَعَلْنا لكلِّ وَحدة مسارًا تلتزمه الوَحَدات جميعها؛ وتشتمل كلُّ وَحدة على:

مدخل:

يتَّسم بإضاءات ثقافيّة عامّة، تحثّ الطالب على البحث، لتوظيفه في الحوار والمُناقشة والمُحاجّة والنقد، في ثقة وجرأة. وقد حَرَصْنا على أن يكون المدخل ذا مستوًى معرفيٍّ وأسلوبيّ عالٍ، فهو مُعَدٌّ للمُطالَعة؛ وهو بمَنزِلة نصٍّ أدبيٍّ، يشكِّل مرجعيّةً ثقافيّةً للوَحدة.

تمهيد النصّ:

قاعدته عَصْفٌ ذهنيّ في أسئلة معدودة، تفتح أبواب النصّ.

تبويب النصّ:

وفيه ذِكْرٌ للنَّمَط الكتابيّ، والجنس الأدبيّ.

عتبات النصّ:

تتضمّن عنوان النصّ، وتوثيقه ونُبْذَةً عن حياة صاحبه، وشَرْحَ بعض مفرداته. وقد أبرَزْنا علاقة العنوان بمضمون النصّ، في إيحاءاته وإشاراته؛ ولذلك وضَعْنا عنوانًا مناسبًا، حين يَرِدُ النصّ غير مُعَنْون.

فهم النصّ وتحليله:

عَمَدْنا إلى تفكيك البِنية مَقاطِع، يوافق كلَّ مقطع منها فكرةٌ رئيسيّة. ولا ينفصل المقطع عن المَقاطِع الأخرى، فهي جميعًا تشكّل بُنيانًا متكامل العناصر.

وقد آثَرْنا أن يتَّسم أسلوب التحليل، بسِمة أدبيّة، تحافظ على رَوْنَقِ الأدب وجماليّته. والمستويات التي دَرَسْنا من خلالها المَقاطِع هي: المستوى الإيقاعيّ، والمستوى المعجميّ، والمستوى التركيبيّ والمستوى البلاغيّ. بَيْدَ أنّنا كنّا نغُضّ الطَّرْفَ عن مستوًى من المستويات، إذا لم يَكُنْ في النصّ، ما يقدِّم مادّته، على نَحْوٍ مُقنِع.

أ. **المستوى الإيقاعيّ:**

يَتّكئ البحث فيه على اكتشاف موسيقى الألفاظ والحروف وجرْس الرَّوِيّ وتفعيلات البحر (إذا كان النصّ شِعرًا)، ورَبْطِ ذلك كلِّه بالوظيفة الدلاليّة.

ب. **المستوى المعجميّ:**

لا يقصد بمصطلح "المعجمي" البحث عن معاني المفردات في المعجم، بل اكتشاف حقول معجميّة، تَدُور حَوْلَ مَركَز معيَّن (الكلمة – المفتاح) (كالفرح والحزن والصيد والإقدام إلخ.) ويتناول رَصْد مفردات وتعابير، لها وظائف دلاليّة تعيينيّة أو تضمينيّة، أو أسلوبيّة، تُلقي بظلالها على النصّ فتُظهر مَقاصِد الكاتب، أو الشاعر.

ج. **المستوى التركيبيّ:**

يقصد بالتركيب انتظام الألفاظ في السِّياقات الجُمليَّة. وأهميّة مَوقِع اللفظ وملاءمته للمَقال والمَقام، وما يعرف بنَحْوِ الكلام. يدخل في ذلك التقديم والتأخير (موجباته وأسراره) ودَوْرُ الجُمَل الاسميّة والفعليّة، في إظهار العلاقات الإسناديّة والدلاليّة والأسلوبيّة في بِناء الخِطاب.

د. **المستوى البلاغيّ:**

لمّا كان مقرّر درس البلاغة في هذا المساق مقتصرًا على إبراز فنيّة الصورة، فَقَدْ راعَيْنا كيفيّة إيقاظ الإحساس بالجَمَال والخَيال في النصّ، ودَوْرهما في دلالات النصّ وأسلوبه، وانسجام عناصره، بما يَفِي النَّمَط حقَّه.

إعادة بناء النصّ:

الهدف من هذا العنوان تمكين الطالب من أن يَعرِض أفكار النصّ بحسب تسَلْسُلِها، بأسلوبه الشخصيّ. فيؤلّف مضامينها بَعْدَما استنطقها في المَراحِل السابقة، ثمّ يبيّن الصلات فيما بَيْنَها ويَشْرَحُها.

التقويم:

لا يعني إصلاح المعوجّ، بل مُقارَبة النصّ مُقارَبة نقديّة، من حيث تَرابُط مَقاطِع بِنيته، ومدَى (وفاء) هذه البِنية لنَمَط النصّ وجنسه. ومن حيث تميُّز الكاتب أو الشاعر، وتفرُّده في أسلوبيّته (طَرْحُ إشكاليّة، أو عَرْضُ، أو سَرْدُ سِيرة، أو وَصْفُ مَشهَد...).

البحث والتوسُّع:

ينطلق من الوَحدة إلى موضوعات جديدة (مُحاكاة – مُقارَنة إلخ) فتطرح أسئلة بحثيّة، هدفها توجيه الطالب إلى توسيع آفاقه الثقافيّة والمعرفيّة، واللغويّة؛ فلا يبقى في حدود النصّ المدروس...

القضايا النَّحْوِيّة:

هي مباحث تدرس الظواهر النَّحْوِيّة دراسة وظيفيّة، مُنطَلَقُها الأساسي النصّ.

وأمّا فيما يتعلّق بدليل المعلّم فقد سعينا إلى ألا يكون الدليل بديلاً من المعلم، أو، أن يتحوَّل إلى نظير له في غرفة الصفّ. فهو نصير له في العمل على تخطّي العوائق والصعوبات من حيث مقاربة النصّ الأدبي مقاربة موضوعيّة قائمة على اعتبارالنصّ بنية لغويّة مستقلّة بذاتها، بعيدًا من أيّ إسقاطات خارجة عن إطار كينونته الخاصّة، بأن توظّف اللغة في خدمة الإنسان، بدءًا من استنطاق المتعلِّم للنصّ عمّا يحتويه من مكنونات و(دلالات)، تتعلق بوجود الإنسان كائنًا فاعلاً في مجتمعه، وذا شخصيّة واعية ومنفتحة ومثقفة، وصولاً إلى إجادة لغته الأمّ، أداة تفكير وتعبير وتواصل، شفاهةً وكتابةً، فضلاً عن وظيفتها الأخرى إطارًا مفهوميًّا لتجريد الموجودات في نظام أو نسق من الرموز والإصلاحات اللغويّة.

لذا، فإنّ طموحنا أن يكون الدليل خريطة طريق للمعلِّم يستهدي بها في رحلته الاستكشافية إلى عوالم النصوص.

غير أنّ الاستهداء لا يلغي دور المعلّم منشِّطًا وموجِّهًا ومحرِّكًا، لمختلف الأنشطة والتمرينات في الصفّ.

لذا، وانطلاقًا من دقّة المهمّة التربويّة المنوطة بمعلّمي اللغة العربيّة وآدابها في المرحلة الثانويّة؛ فقد ارتأينا تصدير الدليل بمقدّمات منهجيّة شاملة لمختلف أبواب العمل، بدءًا من تحديد الوحدة التعليميّة ومكوّناتها وطريقة تنتظيمها... مع تقديم نماذج عنها؛ كما في مقدّمات بعض الدروس... فضلاً عن تحديد الأهداف، بمستوياتها الثلاثة (المعرفية وطرائق التفكير لاكتسابها...

واستثمارها)، والسيكولوجية (المهارات والتقنيات)، والوجدانية (القيم والمواقف)... حيث قدمنا لوحة تحتوي أبرز هذه الأهداف التي تتدامج أو تتناسخ لتكوّن الكفايات اللغوية (كالمشاركة في نقاش، أو التلخيص، أو كتابة مقالة، أو كتابة تعبير كتابيّ وفقًا لنمطي الوصف والسرد...)؛ مع تقديم تطبيقات منهجيّة واضحة لها، بحسب الموضوعات الملائمة لسياق التحليل في النصوص المدروسة...

وقد وضعنا لبعض هذه الأنشطة معايير أو مقاييس للعمل وخصوصًا فيما يتعلّق بمكوّنات أبرز الكفايات اللغويّة منها على سبيل المثال:

التلخيص – كتابة مقالة – المشاركة في نقاش – القراءة الجهريّة – الكتابة النمطيّة... ولم نغفل عمّا للتقويم التشخيصي من دور مهمّ في تحديد مكتسبات الطالب التعليمية السابقة وذلك قبل الشروع في عمليّة التقويم التكوينيّ، الهادف إلى إكساب المزيد من الكفايات، أو تعميقها، إلى درجة الإجادة... وقد قصدنا أن تكون الاختبارات التقويميّة منصبّة على عمليّة تحقيق الأهداف المرسومة في منهج الوحدات؛ حيث صدّرنا كلّ درس بهذه الأهداف المطلوبة.

ونعتقد، أننا وفّقنا، بعون الله تعالى، على أن تكون الأهداف المطلوبة التي يجب أن تكون (كما الكفايات النهائية) مراعية أربعة اتجاهات:

- المنهج الرسميّ الخاص بمادة اللغة العربيّة.
- المنهج العام للألسنيّة الوظيفيّة بمفاهيمها الأساسيّة.
- الإمكانات أو الاحتمالات التي تسمح بها طبيعة النصوص المختارة...
- دراسة التراث الأدبيّ العربيّ تعمّقًا وتذوّقًا، قديمًا وحديثًا ليكون ذخرًا ثقافيًّا للطالب في حياته.

ويبقى التقويم النهائي وهو لأجل إعطاء الحكم النهائيّ على المكتسبات وتقويم نجاح الطالب أو فشله، فهو يحتاج إلى هيكليّة خاصة يُحدِّدها نظام الامتحانات الرسميّة، من حيث نوعيّة الأسئلة وعناصر الإجابة عنها، وميزان العلامات المتعلّق بها. وقد قدّمنا نماذج؛ ليحتذيها المعلّم مثالاً في العمل... أما التقويم الختاميّ، حول بعض الكفايات المطلوبة، فقد أوردنا منه نماذج مفصّلة في سائر الدروس.

وهناك أيضًا قضايا ومسائل أدبيّة مطروحة في تضاعيف الدروس، في النصوص المحلّلة تحليلاً كاملاً والنصوص المحلّلة تحليلاً بنائيًّا، وهذه القضايا تستجيب لدواعي المنهج الرسميّ، من حيث وحداته التعليميّة ومحتوياتها.

وهكذا فقد قدّمنا لكلّوحدة تعليميّة بمدخل عام يرتكز على القيمة الأدبيّة والإنسانيّة والثقافيّة لهذه الوحدة...

وبالإضافة إلى الأدوات المنهجيّة اللازمة لتحليل النصّ (أو تفكيكه بمختلف مستوياته). وهي

المصطلحات والمفاهيم المنهجيّة الحديثة، فإن الأهمّ من توظيف أكبر كمٍّ من هذه المصطلحات هو معرفة توظيفها في تحليل النصّ. فعلى سبيل المثال: لتحديد موضوع النصّ يبدأ المعلّم مع طلابه بتحديد الكلمة المفتاح الأساسيّة في هذا النصّ وبتحديد عناصر الحقل المعجميّ الذي تنتسب إليه... ومن خلال تحديد العلائق بين هذه العناصر، تجري صياغة موضوع النصّ... كما أن هناك طريقة منهجيّة أخرى تقوم على تعيين المرجع أو السياق (أي الموضوع) الذي تتحدّث عنه المرسَلة... وذلك من خلال بعض المؤشّرات كضمائر الغائب... حيث تبرز الوظيفة المرجعيّة... وهذه الوظيفة تتمحور حول موضوع النصّ... ومن خلال علاقة المرسِل بالمرسَل إليه؛ تتبيّن غاية المرسَلة، وقسْ على ذلك في مختلف أنواع الأسئلة التي تجري الإجابة عنها بحسب هذا المنظور الحديث في عناصر المرسلة ونظام التواصل، كما رسمها العالم الألسني رومان ياكوبسون... وفي تحديد بنية النصّ أو تقسيمه يجري اعتماد غير طريقة: كالمعيار المضمونيّ أو البنائيّ أو المدخل السرديّ...

وقد وضعنا في الدليل مخطّطًا مفصّلاً عن مراحل دراسة النصّ والخطوات اللازمة لتحقيق ذلك، ليعرف المعلّم والطالب كلاهما موقع كلّ خطوة في المعالجة والنواحي النظريّة التي تشتمل عليها.

واستعرضنا مع المعلّم طرائق التدريس العامّة (أو ما يمكن أن تُسمَّى بطرائق التحليل أو التفكير) كالاستقراء والقياس والجدل وغير ذلك، مع أمثلة عليها.

وأخيرًا، فإننا نقول لمعلّم اللغة العربية، بحسب النظام المنهجيّ الحديث في تدريسها، إن مهمته شاقّة، وممتعة في آن وإنّ عليه أن يضع نصب عينيه أهدافًا كبرى هي:

1. تمكين الطالب من أن يدرك أن كلّ ما يقرأه أو يكتبه يخضع لقواعد وأصول ومفاهيم معيّنة تضع شروطها علوم الألسنيّة الوظيفيّة الحديثة، انطلاقًا من العلوم اللغويّة العربيّة الأصيلة ووظائفها.
2. إثارة اهتمامه بنصوص الأدب ومؤلفاته وبتلعيمه أنّ قراءة الأدب وتحليله لا يحصلان بنجاح ما لم يجرِ ربطه بالسياق التاريخيّ والثقافيّ.
3. التوقف عند مؤشّرات الكتابة النمطيّة: كالوصفيّ والسرديّ والحجاجيّ والتفسيريّ: توظيفًا وتحليلاً وكتابةً؛ لأنّ في العمل إبرازًا لدور اللغة في الحياة.
4. تفعيل اهتمامه باللغة العربية، في أبعادها التواصليّة شفاهةً وكتابةً وفي بعدها الإبداعيّ، بصفتها في نسيج واحد: لحمةً وسدًى.
5. تشجيعه على امتلاك المعارف والمهارات اللغويّة في العودة إلى المصادر والمراجع الأدبيّة والنقديّة، وتدريبه على تدوين الملاحظات وتقنيّات التلخيص وكتابة التقارير.
6. دعوته إلى الإقبال بشغف على قراءة النثر الأدبيّ والشعريّ، قديمه وحديثه، بالإضافة إلى

سائر أشكال التعبير الأدبيّ في اللغة العربيّة.

وما تجدر الإشارة إليه أخيرًا في هذا السياق _ أننا سعينا إلى أن يكون الدليل أربعة أدلة في آن:

- دليل منهجيّ في طرائق دراسة النصّ الحديثة...
- دليل تربويّ في تطبيق الطرائق الناشطة في تدريس اللغة العربيّة.
- دليل تقويميّ من حيث تقديم نماذج من اختبارات تشخيصيّة، وبنائيّة، ونهائيّة.
- دليل جامع لأبرز المصطلحات والمفاهيم وتقنيّات التواصل الشفهيّ والكتابيّ.

وخلاصة القول، فإن قصارى ما نتمنّاه هو حسن استثمار الدليل، ولاسيّما في موضوع مقاربة النصّ مقاربة وظيفيّة، أي أن تكون اللغة في خدمة النصّ، والنصّ في خدمة الإنسان.

وأمّا فيما يخصّ التدريبات والأنشطة، فقد أفردنا لها في كلّ مقرّر كتابًا خاصًّا. فالاتجاه الوظيفيّ في مجالَيِ التواصل الشفهي والكتابيّ يهدف إلى تمكين الطالب من المكتسبات التي يحصّلها بالملاحظة، والاكتشاف، والمحاكاة والإنتاج الشخصيّ، ووضعِها موضع العمل لتحقيق الكفايات، إذ أنّ مادّة اللغة العربيّة، بفروعها، تشكّل وحدة متكاملة؛ فالقراءة بأنواعها ترتبط بالتحليل، والاستقراء والمناقشة، وإبداء الرأي؛ والنحو اوالصرف يتآزران في تقويم اللسان، والإحساس بالجمال ينمّي الذوق والبيان... فتكون حصيلة ذلك كله التعبير عن الفكر في الإنتاج الشفهيّ فينطلق اللسان من عقال اللحن، وتوظّف المكتسبات المعرفيّة في المهارات والقدرات على الإنتاج الكتابيّ، مما يساعد على تحسين الأداء ويرفع مستوى التعبير توليفًا، وتركيبًا ورسمًا، وتنويع أساليب.